

أ. د. العربي بن الشيخ / أ. فضيلة لكبير  
جامعة باتنة

الملخص:

الأسطورة وسيلة نظامية اجتماعية وثقافية لها عدة تعريفات وضوابط، وقد عرفها كل باحث حسب تخصصه، إلا أنه يمكن تلخيص تلك التعريفات في كونها عبارة عن حاوية تحمل مضمونا ثقافيا، أو تعبيرا أدبيا كالحكم والأمثال، أو تعاليم عقدية أو شرعية تبرز إلزام الفرد بالنظام الاجتماعي المميز لجماعته ومن ثم أهتم الباحثون على بيان معايير تحدد دور الأسطورة في الجانب الثقافي والاجتماعي المزدوج.

Abstract:

*The legend is a regular social and cultural means which has several definitions and controls, And every researcher defined it according to his speciality but those definitions can be summarized as being a container carrying a cultural content or a literary expression like the proverbs and the voice sayings or even religious and doctrine instructions highlighting trying, the individual up to the social order characterising his social group thus researchers did care of stating the criteria to define the role of the legend in the double social and cultural aspect.*

المقدمة:

تميز الإنسان بقدرات عقلية وأجهزة عضوية أكسبته مؤهلات مكنته من اختصار الطاقة والوقت في تحصيل المعرفة وتبليغها لغيره من بني جنسه بالنطق. وقد طور الإنسان قدراته في الترميز حيث أختصر الزمان والمكان والجهد في استثمار جميع عناصر البيئة الطبيعية لجلب الرفاهية لذاته. من أهم أعمال الإنسان التي نجزها التطورات في اللغة وإنشاء المصطلحات ذات المفاهيم والدلالات التي يمكن اشتقاق معاني متعددة منها بالاستحداث أو التجديد بالتأصيل. إلى أن ذهب إلى الترميز للمعتقدات والشعائر برموز مادية ولفظية، توصل المعنى المطلوب لمن وجه إليه الخطاب والتكليف فردا أو جماعة.

جاءت الأساطير من بين أهم وأكبر الوسائل التي تتضمن مصطلحات لفظية ورموز مادية تحمل سياقاً خاصاً للتدليل على مفاهيم ومعاني مترابطة في وحدة موضوعية محفوظة من الاندثار والتخلي عنها بتعاقب الأجيال ومرور الزمان وتطور اللغات لأمة أو لشعب أو لجماعة في المجتمع الإنساني.

تعد الأسطورة من أهم الوسائل والمصطلحات التي أبتكرها الإنسان في نقل معتقدات وعادات يقوم عليها البناء الاجتماعي وكذلك لها دور مهم في تواصل الأجيال، ومنه تبرز أهمية وضرورة الأسطورة لأي جماعة، مما يستدعي طلب مفهومها ومعناها عند الأمم السالفة ودورها في أسس النظم الاجتماعية ومعتقداتها.

ولم يخل مجتمع من أساطير خاصة به تحمل صورة ثقافته، وتبرز ثراء رصيده الأدبي وقوة الخيال في تراثه، ومن ثم تظهر أن للأسطورة مفاهيم وظيفية نظامية اجتماعية وهذا ما يجعل لها أهمية خاصة في دراسة أي مجتمع.

ولذلك موضوع الأسطورة تلازمه عدة مواضيع يرتبط بها من جانب الوظيفة النظامية الاجتماعية وتداخلاته مع الإنتاج المعرفي في مختلف الميادين، كما أن له بعدا ثقافيا؛ بل يعتبر في كثير من الأحيان عنصرا أساسيا للثقافة التي يبين معناها يتضح ويتجلى مفهومه.

### - مفهوم الثقافة

مفهوم الثقافة يختلف من باحث إلى آخر، حسب انتمائه اللغوي والحضاري ولذلك لا ينفك مفهوم مصطلح الثقافة عن مفاهيم المصطلحات اللغوية، والرموز الحضارية، ومن ثم اتسعت الهوة، وتشعبت التعبيرات عن حدود مفهوم الثقافة "كن المعالجة العلمية التي تربط الكتابات المتفرقة في هذا الميدان بالنظرية اللغوية الحالية وتطبيقاتها، سوف تسد ثغرة واسعة في فهمنا لتاريخ العالم الثقافي" (1) ولتحديد ذلك لابد من طرق أمرين أحدهما التعريفات اللغوية، وثانيهما: العناصر المركبة للثقافة، ودورها في حياة الإنسان.

### - التعريف اللغوي والاصطلاحي للثقافة:

تختلف معاني ودلالات لفظ ثقافة من لغة إلى أخرى، إلا أنه لا يخلو المعنى العام المنفق عليه من تضمن تلك الدلالات اللغوية الأصلية، في أغلب اللغات، ولو باستعارة من المعنى اللغوي الأصلي، وبذلك تكون التعريفات اللغوية خاصة ومتباينة لكل لغة معانيها الخاصة بها، وبصورة عامة فإن معاني هذا اللفظ أخذت من اللغتين: العربية واللاتينية أو اللغات الأوروبية الحالية:

1 - تعريف الثقافة في اللغة العربية: تتسم اللغة العربية بوفرة المعاني والدلالات للفظ الواحد وتعدد المرادفات في المعنى الواحد، وتؤخذ هذه المعاني وتحدد من المعاجم اللغوية.

وهذه المعاجم استنقت مادتها من استعمال الألفاظ فيما ورد من نصوص ثابتة عن العرب والأشخاص والقابهم، وكلمة الثقافة أصلها ثقف: من معانيها الثبات "يقال فرس ثبت: ثقف في عدوه (2) . وكذلك من معانيها التسوية: "وذلك أن القدر إذا كان فيه عوج ثقف بالنار حتى يستوي" (3).

ويقال ثقف الشيء حذقه، ورجل ثقف وثقف، و ثقف: "حاذق فهم إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به، ويقال ثقف الشيء، وهو سرعة التعلم ... وثقف الشيء حذقته، وثقفته إذا ظفرت به وكذلك تعني الفطنة والذكاء، أي ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وتعني الخصام والجدال" (4)، ومن دلالاته سرعة الفهم

لما يرمز من الكلام باللسان، جاءت من سرعة الأخذ لما يرمز إليه باليد، والثقف، العاقل أصيل الرأي، اللقن: أي حسن التلقين لما يسمع<sup>(5)</sup>.

ثَقَّفَ الرجل من باب ظرْف، صار حاذقا خفيا، فهو ثَقَّفٌ، وكذلك تعني طرب فهو ثقّف، أو ثَقَّفٌ والثِّقاف ما تسوى به الرماح، وثقفته من باب صادفه، وأدركه ولذلك يقال: ثقفت العلم أو الصناعة أي حصلتها في أقصر مدة وفي أوجز وقت، ومن الحجاز تعني التأديب والتهديب، والثقيف: الحامض ثقال الخل شديد الحموضة<sup>(6)</sup>.

يستعمل لفظ ثقّف استعمالا واسعا بمعاني متعددة، لكن محصلة القول في هذه المعاني والدلالات اللغوية كلما تنحصر في مدلول التحصيل شيء مراد سواء كان معنويا، أم ماديا وهذا التحصيل يحتاج إلى مؤهلات تتوفر في الشخص وهي اللياقة، والحدق أي المهارة التي هي بدورها تحتاج إلى شدة وقوة وتسوية تكتسب عن طريق التكوين والتهديب وتتجلى هذه الدلالة في اسم: ثقيف أطلق على رجل استطاع أن يستميل عامر بن الظرب العدواني، وغرس عيدان في الوادي فنبتت واثمرت فقال القوم: "قاتله الله كيف ثقّف عامرا حتى بلغ منه ما بلغ، وكيف ثقّف هذه العيدان حتى جاء منا ما جاء"<sup>(7)</sup>. وهذا الحدث يعطى مثلا حسنا لاستعمال لفظ ثقّف بمعانيه الحقيقية والمجازية واشتقاق اسم الفاعل بصيغة مبالغة على وزن فاعيل.

## 2- تعريف الثقافة في اللغة الفرنسية والانجليزية: لفظ الثقافة يقابله في اللغة الفرنسية والانجليزية

لفظ (Culture) والمعنى الأصلي لهذا اللفظ هو الزرع، أو الغرس، والإخصاب، واغتناء الأرض بتقليبها ومدّها بالمخصبات، ويبقى المعنى الحقيقي الأصلي للكلمة مستعملا في مجال الزراعة، والبيولوجيا حيث تستخدم في إنشاء المستعمرات للبكتيريا والفطريات والأعضاء فيقال زرع البكتيريا أو زرع الفطريات، أو زرع الأعضاء<sup>(8)</sup>.

وكذلك من معاني الكلمة؛ العطاء والإنماء، والتشبع بالمعارف، وإنتاج الأدب والفن في حضارة ما، وتوثيق العلاقة، والمودة والصداقة، وقد تأتي مرادفة لفظ حضارة، أي أنها تعبر عن المنتجات الحضارية، والنشاطات الفكرية لشعب معين، وعاداته وتقاليده أو رموز، وطقوس شعب ما، وتعني كذلك الطرق التربوية والفكرية، والدرية على منهج تربوي، أو فني<sup>(9)</sup>. وهذه المعاني اكتسبها اللفظ بتطوره خلال مراحل زمنية طويلة أي كل ما جاءت الحاجة إلى دلالة جديدة قريبة من الدلالة الأصلية ألصقت باللفظ الأصلي وأصبح معبرا عنها، كما له في كل مجال معين من العلوم والمعارف معاني تخصه في ذلك الميدان، إذا ما قورنت معاني اللفظين «ثقافة» و «Culture» في اللغتين العربية واللغات الأوروبية يلاحظ أن اللفظ في اللغة اللاتينية بعيد عن معنى اللفظ في العربية إلا أنه تطور واكتسب، أو أضيفت عليه معاني من تلك الدلالات الأصلية للفظ العربي الأصيل الذي جاء محملا ومتضمنا لعدة معاني دالة على حقيقة التعبير باللفظ، وهذا ناتج عن الاحتكاك بين الحضارة العربية والأوروبية، والتواصل العلمي بينهما بشتى السبل،

والمسالك المختلفة إلى أن صار اللفظان يقتربان، بل يتضمن كل منهما نفس الدلالات مع الفارق في الأصل.

**3 - التعريف الاصطلاحي:** يستمد التعريف الاصطلاحي للفظ الثقافة من المعاني اللغوية ويصبح يرمز في ذهن إلى مجموعة دلالات مفاهيم ترتبط ببعضها بواسطة علاقات بين عناصر يحددها مجال تظهر فيه تطبيقات تلك المفاهيم جلية، ولذلك جاءت تعريفات العلماء للثقافة متباينة، أي لشمول بعضها ما لم يحويه الآخر، فكانت "لا حصر لها والتي قد طرحت وجربت دون أن يتحقق اتفاق حولها بين الباحثين. يكفي القول إن هناك اتجاهين في تلك التعريفات يتنافسان على التفوق، أحدهما ينظر للثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والايديولوجيات، وما شاكلها من المنتجات العقلية، أما الاتجاه الآخر فيرى للثقافة على أنها تشير إلى النمط الكلي لحياة شعب ما، والعلاقات الشخصية بين أفرادها، وكذلك توجهاتهم<sup>(10)</sup>.

من العلماء من عد الثقافة أنها مجموعة نظم رمزية أولها اللغة ويليهها قواعد نظام الزواج، والاقتصاد، والفن، والعلوم، والدين<sup>(11)</sup>، وهناك من أعطاهما تعريفا غير محدد، وأطلق تعريفها حسب المجال الذي يستخدم فيه اللفظ فقال: الثقافة هي مجموعة معارف في مجالات مختلفة كالفن، والأدب، والفلسفة، ولها معنى حسب مجال استعمال المصطلح<sup>(12)</sup>. ويذهب مارتون إلى: أن استخدام مصطلح (Culture) بما يعنيه حديثا بدأ منذ القرن 18 بتطبيقه على الجماعات الإنسانية، وعرفه بأنه يصف، أو يعرف نظم ورموز الجماعة الإنسانية، وكيفية تبليغها لغيرها، كما يعني مجموعة القيم والمثل التي تتميز بها جماعة من الناس عن غيرهم، ومدلول المصطلح الواسع هو: كل ما ينتجه المجتمع وما تقوم عليه علاقاته من معتقدات ولغة وفكر وفن، ومعارف تكنولوجية؛ أي كل ما يربط الإنسان بمحيطه من إنتاج فكري وعمران ويضيف بعض آخر من الباحثين المنتجات الاجتماعية ووسائلها وطرق إنتاجها إلى مفهوم الثقافة<sup>(13)</sup>، فيرى أنها: كل القيم المادية والروحية ووسائل إنتاجها التي ابتدعها المجتمع خلال مساره التاريخي وتشمل جميع المنجزات في مجال العلم والفن والأدب والفلسفة<sup>(14)</sup>.

و بهذا المعنى تكون الثقافة هي ما يعبر به عن علاقة الإنسان بنفسه وبالجماعة من تقاليد، ونشاطات فكرية وعلمية، وهي دليل التقدم العلمي والعقلي الظاهر في سلوك المتقف، أو دليل الحضارة<sup>(15)</sup>. ولقد عرف مجموعة من العلماء الثقافة بعدة تعريفات منها المتباين، ومنها المتقارب، حسب تخصصاتهم. من أهمهم:

1- تايلور E.B.TAYLOR عرف الثقافة بأنها "هي جميع النظم التي تتضمن كل المعارف والمعتقدات، والفنون، والأخلاق، والمثل، والقيم، والقانون، والعرف والعادات، وجميع القدرات والسجايا التي يكسبها الإنسان من حياته الاجتماعية".<sup>(16)</sup> يبدو أن تعريف تايلور يجمع عدة خصائص للثقافة المادية والمعنوية، وأهمها المعتقدات، وطرق اكتساب السجايا التي توجه السلوك لدى الفرد، وتتبع نتائجها على الحياة الاجتماعية.

ب-روث . بندكت (RUTH BENDDCTE) ومارغريت ميد (MEAD MARGARIT) ولينتون.ر ( LINTON.R ) وابراهيم كارديني (KADINER.A) يذهبون إلى أن الثقافة هي مجموعة من نظم تضمن تماسك جماعة، أو أنها نمط من الفكر تترك فيه مجموعة من الأشخاص تنظم تصرفاتهم، وعلاقاتهم فيما بينهم، أو هي كل شيء إذا نقض أو عورض أثار استياء الأشخاص والجماعة، إذاً هي تكيف الإنسان بمحيطه لإشباع حاجاته ورغباته النفسية، والمادية الأساسية كالجوع وغريزة الجنس. ومن ثم تكون هذه النظرة قد قسمت النظم إلى أولوية تخص بقضايا الفرد وتوجيهه طوعاً وكرهاً في تكيفه مع المحيط، ونظم ثانوية تغطي أو تظهر آثارها في شخصية الفرد والجماعة<sup>(17)</sup> .

ج- مالينو فسكي ( B.MALINOWSKI ) ذهب إلى أن الثقافة تشمل جميع أنشطة الإنسان: من اقتصاد، وطقوس، وأساطير وعلاقات عائلية، وحياة زوجية وحرف، ومنتجات صناعية، وفنية، ونظم، وعادات وقيم أخلاقية، هذا تحليل الثقافة لديه، أي جعل عناصر البناء الاجتماعي جزء من الثقافة<sup>(18)</sup> حاول مالينوفسكي إثبات أن كل الثقافات بصرف النظر عن تنوعها في الشكل تقوم بوظيفة إشباع حاجات عضوية ونفسية عالمية للأفراد، فالثقافة إذن هي أداة يشبع الأفراد عن طريقها تلك البواعث مثل الجوع، والجنس، وذلك هو ما عناه مالينوفسكي عندما أعلن أن الثقافة يجب أن تفهم على أنها وسيلة لغاية أن بالمعنى الآلي الوظيفي<sup>(19)</sup>

وهذا يجعل الفرد مستقلاً في مفهوم الثقافة ووظيفتها عنده، إذ هي مجرد وسيلة تستخدم من قبل الفرد والجماعة لتلبية رغبة، أو إشباع حاجة تختلف مقدارها وضرورتها من فرد إلى آخر، ويتجلى ذلك في قوله أن البضائع المستهلكة جزء من الثقافة.

د- أما بقية الباحثين فلا تخرج تعريفاتهم عن كونها جزءاً من ما سبق من التعريفات أو تضم إليه عنصراً، أو عنصرين أو تقتصر على البعض دون الآخر، و يتبين من خلال تعدد واختلاف هذه التعاريف: أن مصطلح ثقافة يستعمل اليوم استعمالاً فضفاضاً ينحصر أحياناً على دلالات مخصصة ويتسع أحياناً أخرى ليشمل دلالات عديدة، لكن يكاد أن تنتهي دلالاته، أو يغلب عليها المفهوم الدال على أساليب ومناهج التفكير، والسلوك، التي يحقق بها المجتمع نمط حياته المفضل<sup>(20)</sup>.

كما يمكن القول بأن الثقافة هي كل ما أنتجه الإنسان خلال تاريخه من ماديات : كالعمران والآلات... إلخ ومعنويات : كالمثل والقيم الأخلاقية، والقانونية، والفن والأدب، والأساطير... إلخ. وبذلك يكون معناها يرادف معنى الحضارة. ونرى بأن بينما علماء علم الأنثروبولوجيا، خصوصاً بوظيفتها، أو فاعليتها، فجعلوها مترادف مفهوم العقيدة، أو هي المحفز لجميع نشاطات الإنسان، وإنتاج الحضاري، أي أنها الداعي الذي تتأسس عليه قناعات الفرد ، والجماعة في بناء وحفظ نمط الحياة ، لا يتميز فيها شعب متحضر وآخر غير متحضر، فجميع الحضارات بما فيها الحضارات القديمة أو المعاصرة ليست سوى مراحل

خاصة في تطور الثقافة. فالثقافة عند عالم الاجتماع و الأنثروبولوجي موجودة في لندن وباريس وموسكو. كما هي موجودة في تامنراست عند... والطارق" (21).

إذا تصورنا البناء الاجتماعي نجده يقوم على عناصر أساسية، وهي: الدين واللغة، والاقتصاد، والمعاملات، أما بقية المنتجات المادية، كالكنولوجيا بما فيها من آلات، و عمران... إلخ؟ والمعنوية كالفن، والأدب، والتشريعات، فهي غالباً ما تكون، إما ثمرة من تلك العناصر، أو جزء منها أحياناً. ودور عنصر اللغة هو المداد الواصل بين العناصر، والمعبر عن نتائج تفاعلاتها، فإذا كانت هذه هندسة البنية الاجتماعية فما محل الثقافة منها، أو فيها؟ من خلال ما يقوم به علماء الإناسة من دراسات في فهم توجهات الأمم والجماعات، ولمكانية توجيهها بواسطة إفران منشطات، أو مثبطات لبعض القنوات التي توجه السلوك، والممارسات. يمكن أن نستشف، أو نستخلص معنى، أو تعريفاً للثقافة بالقول: أنها هي قدرة تمكن الفرد والجماعة من القنوات في توجيه السلوك وجميع التفاعلات الناجمة عن المعتقدات لبلوغ ثمرة ما (22).

ولذلك يكون لها مستوى بين الرداءة والانحطاط وبين الرفعة، إذا الثقافة هي تمكن الشخص في تطبيق، وتجسيد المفاهيم التي تملئها المعتقدات. وبالتالي تكون منتجات الإنسان تعبر عن درجة مستواه الثقافي، وكذلك تكون الحضارة التي هي ثمرة تلك الأعمال الناتجة عن الثقافة، أي أن الثقافة هي "النسق المتكامل لأنماط السلوك التي يكتسبها الفرد في مجتمع معين" (23) وتشمل هذه الأنماط سلوك الإنسان في تعامله مع المادة مثل: العمران، والصناعات... إلخ، ومعاملة الإنسان لغيره من أفراد الجماعة أي جميع أنماط السلوك التي تتحدد فيها علاقة الأفراد ببعضهم كنظم اللغة، والاقتصاد، والعلاقات العائلية، والدين، والسياسة، والأخلاق، والفن، والعادات و التقاليد، ونتيجة تعريف الثقافة أنها تتركب من عناصر لها وظيفة في بناء المجتمع، وتميزه أو تضيء عليه صفات، وخصائص مميزة له.

#### - مفهوم الأسطورة :

**أ- لغة** إن مصطلح الأسطورة له جذوره اللغوية ومعانيه في اللغة العربية ففي لسان العرب باب السين: سطر: الصف من الكتاب، أو الشجر أو النخل ونحوها، والجمع من كل ذلك أسطر وأسطار وأساطير.

والسطر: الخط والكتابة، قال الزجاج في قوله تعالى: «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً» الفرقان الآية كومعناه سطره الأولون وواحد الأساطير أسطورة. وعند ابن كثير أساطير الأولين: كتب الأولين.

و سطر علينا: جاءنا بالأساطير، يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها، وتلك الأقاويل الأساطير.

وجاء في معجم الصحاح باب السين مثل ذلك، أضاف عليه الأساطير هي الأباطيل. وفي القاموس الجديد الأسطورة هي الحكاية التي لا أصل لها في الواقع وهكذا فإن المعاجم العربية لم تعط مدلولاً حقيقياً لكلمة أسطورة، فالأساطير هي الأحاديث التي لا نظام لها.

و هي الأباطيل والأحاديث العجيبة، وهي الحكاية التي لا أصل لها. إلا أن هذه المعاني لكلمة أسطورة في العربية نجد ما يقاربها في اللغات الأوروبية فكلمة **Myth** في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية وغيرها مشتقة من الأصل اليوناني **Muthos** وتعني قصة أو حكاية شعبية أو أدبية<sup>(24)</sup> وكان أفلاطون أول من استعمل تعبير **Mentholgia** للدلالة عن فن رواية القصص، ومنه جاء تعبير **Myhyologie** المستخدم في اللغات الأوروبية الحديثة،<sup>(25)</sup> وهنا يجب التمييز بين مصطلح الميثولوجيا ومصطلح الأسطورة **Myth**، فالأول يشير إلى شيئين.

1-دراسة الأسطورة ذاتها، دراسة علمية منظمة.

2-مجموع الأساطير التي تميز حضارة ما كالميثولوجيا المصرية أو اليونانية أو البابلية.

في حين أن **MYTH** تشير إلى قصة أو حكاية وفي لغات الشرق القديم كالأكادية والحثية والمسمارية فلا تعثر على مصطلح خاص ميز به أهل تلك الحضارات الحكاية الأسطورية عن غيرها. و هنا تكمن المشكلة «فالقديم أنفسهم لم يعملوا على تمييز النص الأسطوري عن غيره، ولا هم دعوه باسم خاص يساعدنا على تمييزه بوضوح بين ركام ما تركوه لنا من حكايات وأناشيد وصلوات وما إليها»<sup>(26)</sup>.

و لتوضيح ذلك ساق مسطروا الأساطير مثالا: (المثال السومري) « فقد كان للسومريين مكتبات يحفظون فيها الرقم الفخارية، تدعى بيوت الألواح وكان لهم نظام للأرشيف، يساعد خازن بيت الألواح على جرد محتويات وخدمة المستفيدين منه... حيث نجد في مكتبة الملك آشور بانيبال النصوص وقد حفظت إلى جانب بعضها البعض دون عناية، ولم يفرزها إلى مجموعات، وفق موضوعاتها، وحيث نصوص الحكم والوصايا، إلى جانب الصلوات والتراتيل إلى جانب الأساطير... واليك بعض العناوين المدرجة في أحد فهارس المكتبات السومرية.

1-إنليل واسع الإدراك وهو بداية ترتيب مرفوعة إلى الإله إنليل.

2-السيد إلى أرض الأحياء وهو بداية نص لجامش وأرض الأحياء.

3-إلى أين كنت تذهب وهو مأخوذ من السطر الأول لنص أيام الدراسة الذي يقول يا ابن المدرسة

إلى أين كنت تذهب في الأيام القديمة؟

4-الفلاح في سابق الأيام، وهو مأخوذ من بداية رسالة تتضمن توجيهات موجهة من فلان لابنه.

5-من الأعلى العظيم إلى الأسفل العظيم، وهو بداية أسطورة: هبوط إنانا إلى العالم الأسفل»<sup>(27)</sup>.

فالملاحظ لهذه العناوين يرى كيف تم إقحام الأساطير إلى جانب النصوص الأخرى كالمدرسة والتعليمات الزراعية دون إعطاء خصوصية لأي منها، ورغم ذلك « فإن الأقدمين كانوا يميزون بدقة بين القصص الحقيقية التي ترتبط بالمعتقدات الدينية (الأساطير) والقصص الزائفة ذات المضمون الأدبي البحت»<sup>(28)</sup>.

ب- الأسطورة اصطلاحاً : لما كانت الأسطورة واقعة ثقافية شديدة التعقيد كان من الصعب علينا إيجاد تعريف متفق عليه يكون في متناول المتخصصين والمهتمين والدارسين على السواء. أضف إلى ذلك نسبة التشابه بين مصطلح الأسطورة ومصطلحات أخرى ، كان لزاماً علينا أن نقف مطولاً مع هذا المصطلح بغية توضيحه وتحديد بدقه قدر الإمكان.

و جاء في قاموس علم الاجتماع أن الأسطورة هي: «تفسير أو قصة رمزية تروي حادثة غريبة، أو خارقة للطبيعة، توجد في ثقافة فرعية، وتتميز الأسطورة بتناقلها، وانتشارها على نطاق واسع، وتأثيرها العميق نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة، وفلسفة وإثارة والهام»<sup>(29)</sup> وبقراءة بسيطة لهذا التعريف نجد أنه ليس خاصاً بالأسطورة بل تشترك فيه أيضاً الخرافة والملحمة، والحكايات الشعبية... لذلك سنقف مع تعريف آخر، فقد اهتم الباحثون في القرن التاسع عشر بأصل الأساطير إلا أن علماء الأنثروبولوجيا تجنبوا البحث فيه لأن العديد منهم يعتقدون أن الأسطورة جزء من نسق اجتماعي، يتكون من عناصر معاصرة فنجد **برنوسلاف مالينوفسكي** مثلاً: حاول أن يضع تعريفاً للأسطورة من خلال استخلاص طبيعتها ووظيفتها في المجتمعات البدائية: «ليست الأسطورة تفسيراً يراد منه تلبية فضول علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية، وتستجيب لحاجة دينية عميقة، وتطلعات أخلاقية وواجبات، وأوامر على المستوى الاجتماعي، بل وحتى متطلبات عملية في الحضارات البدائية، تملأ الأسطورة وظيفة لا غنى عنها تفسر وتبرر وتقنن المعتقدات، تحامي عن المبادئ الأخلاقية وتفرضها، تضمن فعالية الاحتفالات الطقسية وتنتج قواعد عملية لاستعمال الإنسان»<sup>(30)</sup>.

فالأسطورة مكون جوهري في الحضارة الإنسانية، ليست خيالاً بل حقيقة قائمة بذاتها يلجأ إليها الإنسان لتعنيه على كشف حقيقة معنى الطقوس والأعمال التي يؤديها على الصعيد الأخلاقي، وبيان الأسلوب الذي ينبغي عليه أدائه به.

وإذا كان **مالينوفسكي** قد تعرض إلى الأسطورة بالنظر إلى جانبها الوظيفي فإن **مرسيا إلياد** تناولها باعتبارها «أحداثاً تاريخية حدثت في الزمن السحيق» فالأسطورة تروي تاريخاً مقدساً، تروي حدثاً جرى في الزمن البدائي، الزمن الخيالي، هو زمن البدايات؛ فالأسطورة تحكي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعاً من النباتات، أو مسلماً يسلكه الإنسان أو مؤسسة»<sup>(31)</sup>، فلا تزيد الأسطورة عن كونها حكاية خلق تروي لنا كيف كان إنتاج شيء ما وكيف كانت بدايته أما أشخاصها فهم كائنات عليا (آلهة)، من هنا تأتي أهمية ميثلوجيا التكوين في أديان الشعوب وعلو شأن أسطورة الخلق في النظم الميثلوجية، لذلك كانت أسطورة التكوين البابلية هي سيدة أساطير تلك الثقافة «لم يكن هناك سماء في الأعلى، ولم يكن هنالك أرض في الأسفل، لم يكن هناك سوى آلهة العماء القابعة وراء الزمن والمعارضة لأية حركة أو فعل، ثم جاء الإله الخالق مردوخ ليبتدئ سيرة حياته مع سيرة حياة الكون الذي أخرجه من لجة العماء البدائي»<sup>(32)</sup>.



ولذلك أيضا تنصدر أسطورة التكوين الثوراتية الصفحة الأولى من كتب العهد القديم «ففي البدء خلق السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف فوق وجه المياه» وقبل ذلك لا يعرف ما كان يفعل الإله يهوه<sup>(33)</sup>.

وكانت الأسطورة بمثابة جواب عن السؤال كيف خلق ذلك الشيء؟ و بالأسطورة أيضا «يمكن التعرف على أصل الأشياء ليتمكن الطقس الديني من إعادة تكراره، ذلك أن الطقس يقوم بإعادة تكرار حدوث الخلق الذي يمكن الإنسان من الاتصال بالآلهة ويزمن الخلق الأول»<sup>(34)</sup>.

وفي مقابل هذا نجد ماريت يقول إن «الأسطورة ليست بحثا عن الأسباب وإنما هي كفالة للدين وضمان وليست غايتها أن ترضي الفضول بل أن تؤكد الإيمان»<sup>(35)</sup>.

فالأسطورة وسيلة توضح الإيمان وتقويه، وهي تضمن فعالية الطقس الذي تعيش فيه من جديد باعتبار أن الأسطورة هي الجزء المحكي من الطقس.

وهناك تعريفات أخرى للأسطورة لكنها بالغت في بعدها عن جوهر الأسطورة مثل ما ذهب اليه **ماكس مولر** - وهو من أكبر المشتغلين بالأساطير - إلى أنها «تصوير فترة من الجنون كان على العقل البشري أن يجتازها»<sup>(36)</sup>.

هذا التنوع في النظر إلى الأساطير، لا يبرره إلا الغموض العميق الذي يحيط بهذا الموضوع. إضافة إلى ذلك أن الاستخدام العلمي لكلمة أسطورة قد يسبب سوء فهم آخر بسبب أن الكلمة تعني في الأوساط الشعبية باطل أو خرافة.

وفي الأخير سوف نعرض تعريفا آخر نراه أكثر دقة وتحديد وهو تعريف فراس السواح. فالأسطورة في رأيه هي ظاهرة من أهم ظواهر الثقافة الإنسانية لها أجناس أدبية مشابهة لها من حيث الشكل مثل الخرافة والحكاية البطولية<sup>(37)</sup>.

#### . معايير الأسطورة:

حتى نميز النص الأسطوري من غيره فقد وضع فراس السواح معايير لذلك قبل أن يقدم تعريفه للأسطورة وهي كمايلي :

#### المعيار الأول:

**من حيث الشكل:** الأسطورة هي قصة، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليه، وغالبا ما تجري صياغتها في قالب شعري ساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية، ويزودها بسلطان على العواطف والقلوب.

**المعيار الثاني:** يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتناقله عبر الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة للجماعة كما هو الشأن بالنسبة للأساطير السومرية التي حافظت على صيغتها الأصلية قرابة الألفي سنة من الألف الثالث قبل الميلاد إلى الألف الأول قبل

الميلاد إلا أن هذه الخاصية لا تعني الجمود أو التحجر لأن الفكر الأسطوري يجدد أساطيره دائما، إما بالتخلي عن الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية أو تعديلها.

**المعيار الثالث:** لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي أو حكمة شخص يعينه، بل إنها ظاهرة جمعية تعبر عن تأملات الجماعة، وحكمتها، وخلاصة ثقافتها، ولا يمنع هذا الطابع الجمعي أن يقوم الأفراد بإعادة صياغة الحكايات الأسطورية، وفق صيغة أدبية تتماشى وروح عصرهم. لذلك لا تعتبر محاورات أفلاطون أساطير، وإن أطلق عليها هذا المصطلح لأنها لا تعبر عن تجربة جمعية مشتركة.

**المعيار الرابع:** تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا لا رئيسيا.

**المعيار الخامس:** تتميز موضوعات الأسطورة بالجدية والشمولية فهي تدور حول المسائل الكبرى التي تعن دوما على عقل الإنسان مثل: الخلق والتكوين، وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر... الخ؟

**المعيار السادس:** ليس للأسطورة زمن، أي أنها لا تقص عن حدث جرى في الماضي وانتهى، بل عن حدث ذي حضور دائم. فزمانها والحالة هذه زمن مائل أبدا لا يتحول إلى ماض، والأحداث التي تقصها الأسطورة هي أحداث حقيقية، يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيماننا لا يتزعزع، فالإله تموز (إله الخصوبة) الذي قتل ثم بعث إلى الحياة إنما يفعل ذلك في كل عام، إذ يقتل في الصيف (فيكون الجفاف) ويبعث في الربيع فتصبح الأرض مخضرة. وهذا يتجدد في كل عام والإله مردوخ (أومردوك) (إله بابل) الذي خلق الكون ونظمه في الأزمنة المقدسة الأولى إنما يفعل ذلك في كل عام ومع بداية السنة الجديدة، حيث يقوم بإعادة خلق الكون وتجديده. وعندما لا يكون للحدث الأسطوري هذا الطابع الدوري المتكرر الواضح، فإن مضمون الأسطورة يعبر عن حقيقة أزلية متخللة في حياة البشر، لا يطالها تغيير، فأسطورة خلق الإنسان من تربة الأرض ممزوجة بدم إله قتل هي تأسيس لفكرة الطبيعة المزدوجة للإنسان وتكوينه من عنصر مادي وآخر روحاني.

**المعيار السابع:** وهو المعيار الأخير. سطوة الأسطورة وسلطتها على عقول الناس ونفوسهم، ومؤيدات هذه السلطة تتبع من داخل الأسطورة لا من خارجها وهي عندما تنتصدي لمسألة من المسائل الشمولية، فإنها لا تطرح موضوعها على بساط البحث والتحليل وإنما تتقدم بحقائق لا تقبل الجدل. فسطوة الأسطورة التي تمتعت بها في الماضي لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث، فنحن اليوم نؤمن بوجود الجراثيم وبقدرتها على تسبب المرض سواء رأيناها بالمجهر أم لا، وبأن الكون مؤلف من مليارات المجرات... الخ؟، وذلك لأن العلم قد قال لنا ذلك، وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة، مثلما نؤمن وبدون نقاش بما ينقله لنا العلم والعلماء، وكان الكفر بمضامينها كفرا بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته وثقافته وفقدانا للتوجه السليم في الحياة. (38).

فبالاعتماد على المعايير السابقة يمكن أن نصل إلى تعريف للأسطورة يمهّد الطريق أمام الباحث في الميثولوجيا ويزيل كل لبس حول المصطلح، فالأسطورة هي حكاية مقدسة مؤيدة بسلطان ذاتي، وذات مضمون عميق يشف عن معان ذات صلة بالوجود والكون وحياة الإنسان. ونعني بالقدسية هنا تلك الصفة التي يتم أسباغها على كائنات وموضوعات دينية فقط، بل ذلك الإجلال والتعظيم الذي تستثيره الأسطورة بسبب وضعها المتميز بحق. ونقصد بالسلطان الذاتي المعيار الأخير سطوة الأسطورة وسلطتها على عقول وقلوب الناس.

### الخاتمة:

في الختام يتضح بأن المعايير المطبقة في تعريف الأسطورة جاءت مختلفة حسب اختلاف اختصاصات الباحثين منهم من اعتمد على المعاني اللغوية ومنهم من ذهب إلى اعتماد دورها ووظيفتها العقدية والاجتماعية. و يتبين من خلال أطروحات الباحثين بمختلف تخصصاتهم أن الأسطورة تعد وسيلة ذات خصائص ومواصفات تكسبها الصلاحية والليونة في الاستعمال لبلوغ هدف أو تبليغ نمط من الثقافة عبر تعاقب الأجيال في مجتمع ما لحفظ أساسات نظامه المفضل.

### قائمة المراجع :

1. ر. هـ. روبنتر، موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة، أحمد عوفي، عالم المعرفة، رجب /نوفمبر (1418هـ/1997م) ، ص 14 :
2. بن منظور، لسان العرب، دار الفكر، (د.ت.ط)، ص ص: 19.
3. نفس المرجع ، ص: 522.
4. نفس المرجع ، ص ص: 19-20
5. نفس المرجع ، ص ص: 390.
6. الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ط(1995)، ص: 63.
7. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، (د.ط.ت.)، ص: 10.
8. Longman.dictionary of english.éd.1984.p:270.
9. Paris.1977 p :21 . Parmentier. .Petit Robert .9-Robert-Paul
10. ميشال طومسون وآخرون، نظرية الثقافة، عالم المعرفة، الكويت، ط(1997)، ص: 31.
11. Lefebvre.H. L'ideologie structuraliste. éd: (Anthrops-1971).Paris.pp:64
12. Paul. Robert. Op.cit.pp:436-437
13. Matinon.J-P.Culture sociologie de culture-société symbolique.Encyclopidie universalis.C.D:04(1999) .
14. وهيب إبراهيم سمعان، الثقافة والتربية في العصور القديمة، دار المعارف، ط(1961)، ص ص: 13-14.
15. نفس المرجع ، ص : 19
16. محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1991).ص:51
17. وهيب سمعان، المرجع السابق ، ص : 13.
18. محمد السويدي، المرجع السابق، ص: 49-50 .
19. ميشال طومسون وآخرون، المرجع السابق، ص: 291

20. عبد المحيد النجار، المستقبل الثقافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1 (1997). ص: ص 11,9.
21. محمد السويدي، المرجع السابق. ص: 45-46.
22. محمد الجوهوري، الأنثروبولوجيا. دار المعارف. ط2 (1982)، ص : 64.
23. عاطف وصفي، المجتمع العربي. دار المعارف. القاهرة . (1966). ص: 38
24. Petit Larousse en Couleurs Libraire Larousse , 1980,p: 559.
25. فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ط2، دت، ص: 56.
26. فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دت، ص: 8.
27. نفس المرجع السابق، ص: 9.
28. المرجع نفسه، ص: 14.
29. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر، دت، ص: 296.
30. محمد الخطيب، الإثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دت، ص: 194.
31. مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دمشق (1987)، ص ص 10-11.
32. فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين للطباعة والنشر والترجمة، دت، ص: 60.
33. المرجع نفسه، ص: 60.
34. عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص: 35.
35. إ. أجيمس، الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلبي، الشام، دار التوحيدي للنشر، الطبعة الأولى 1998، ص: 21.
36. أحمد كمال زكي، الأساطير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص: 41.
37. فراس السواح، الأسطورة والمعنى، المرجع السابق . ص: 20
38. نفس المرجع السابق. ص ص: 23. 30.